اكتساب المعرفة ونموّها لذلك يكرّس الكتاب الثالث من المقالة لموضوع «المفردات» ومع ذلك يعترف بأنه عندما بدأ كتابة «المقالة» لم يتنبّأ بالحاجة لمناقشة خصائص اللغة والتواصل.

لكني أجد ضمن منهج متقارب أن هناك علاقة متينة بين الأفكار والمفردات، إلى الحد الذي يصبح فيه من المستحيل الحديث بوضوح وجلاء عن المعرفة - وهي في مجملها تتكوّن من الافتراضات - من دون الاهتمام أوّلاً بطبيعة واستخدام ودلالة اللغة.

(المقالة: الكتاب الثاني، الفصل الثالث والثلاثون، الجزء التاسع)

لماذا يعزو لوك أهمية كبيرة إلى اللغة ضمن نظرية المعرفة لديه؟ من المفيد أن نبدأ بموجز قصير عن أسس تلك النظرية. تقول الرسالة إن المعرفة الإنسانية تتكون جميعها من الأفكار. ويُصوّر العقل البشري بأنه مستودع للأفكار، والتفكير عبارة عن المعالجة الذهنية للأفكار المخزونة. وأن التواصل اللفظي يتكون من تناقل الأفكار أي نقل الأفكار من ذهن شخص معين إلى آخر. واللغة هي الوسيلة «الرافد الأكبر» التي بوساطتها يحصل تناقل الأفكار. ويجادل لوك في الكتاب الأوّل من «المقالة» ضدّ الافتراض - الذي كان سائداً في القرن السابع عشر - القائل إننا مزوّدون بالفطرة ببعض أو كل الأفكار التي لدينا (وهذا الموقف يؤيّده مثلاً ديكارت). بينما يعتقد لوك - كما يسهب في الكتاب الثاني - أن أفكارنا مستمدّة من الخبرة. والذهن عند الولادة صفحة بيضاء وعليه تنقش قصة الخبرات لاحقاً. وتزوّدنا الخبرة بالأفكار عن طريقين واضحتين. الأولى، حواسنا الخمس التي نستطيع بها أن نشكّل ما يسمّيه لوك « الأفكار البسيطة للإحساس» مثل فكرة الحلاوة والنعومة واللون الأخضر الخ. والثانية، نكتسب «الأفكار البسيطة للتأمل» عندما نجرّب إعمال عقولنا (

يكون لها عند شخصين مختلفين دلالة دقيقة واحدة؛ طالما أن الفكرة المعقّدة لدى شخص نادراً ما تتفق مع الفكرة المعقّدة لدى الآخر وغالباً ما تختلف عن فكرة الشخص نفسه عمّا كان لديه من أفكار بالأمس أو ما سيكون غداً.

(المقالة: الكتاب الثالث، الفصل التاسع، الجزء السادس)

ومثل هذه الحالة المزعجة الناجمة عن الاستخدام السيئ للمفردات يعاني منها الناس في تأملاتهم الخاصة، ولكن التشوهات الناجمة تبدو بوضوح أكبر في المحادثة والخطاب والمناظرات مع الآخرين. ولأن اللغة هي الرافد الأكبر التي من خلالها ينقل الناس الاكتشافات والمنطق والمعرفة من شخص إلى آخر. وإن الشخص الذي يسيء استعمال اللغة ـ رغم أنه لا يفسد ينابيع المعرفة الموجودة في الأشياء ذاتها ـ مع ذلك فهو كما تنطوي عليه سريرته يحطّم أو يسدّ المنافذ التي توزّع المعرفة لتخدم الصالح العام ومنفعة البشرية.

(المقالة: الكتاب الثالث، الفصل الثاني، الجزء الخامس)

جون لوك (1623 ـ 1704) ابن مزارع صغير في منطقة سمرست غرب إنجلترا تقلّد منصباً رفيعاً في الدوائر الحكومية خلال حقبة حكم الملك ويليام والملكة ماري. وكما نتوقّع، كانت معظم كتاباته تدور على مواضيع سياسية مثلاً رسالته في «التسامح» وكتابه «رسالتان عن الحكومة». ولكن الأهم من ذلك أنه حاز على مكانة في التاريخ بسبب مقالته عن الاستيعاب لدى الإنسان. وقد نشرت لأول مرة عام 1689. والمقتطفات المذكورة في هذا الفصل اقتبست من الكتاب الثالث من كتاب لوك «المقالة».

وتُعدّ مقالة لوك أساساً رسالة في نظرية المعرفة تتطرّق إلى طبيعة المعارف وكيف نكتسبها ومعوّقات اكتسابها. ولأن لوك لا يرى في اللغة